شعر الحماسة عند العرب

للاستاذ احمد حسن الرحيم

شعر الحماسة لا يخلو منه أدب أمة من الأمم الراقية ، فهو قطعة من تاريخ حروبها الداخلية والخارجية ، وهو حافز قوى يؤجج في النفس الحمية والحرص على الكرامة . ولكثرة حروب العرب كثر في أدبهم شعر الدماء والصدام . وقد تكيف العربي لبيئته القاسية وأذعن لما تطلب منه حفظا لحياته ، فالذي يعيش في خيمته عرضة لكل هجوم يباغته به عدوه من الإنسان أو الحيوان ينبغي أن يكون شجاعا خفيف الحركة لا تربكه المفاجآت. ولما كان الكلام من وسائل الدفاع - أيضاً — فقد وجب أن يكون سريع الارتجال ، حاضر البديهة ، بليغ الإجابة ، وقد أحب العرب باديتهم وفضلوها على الحاضرة وافتخروا بحريتها وطلاقتها ، قال القطامي :—

ومن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا
ومن ربط الجحاش فإن فينا قنا سلباً وأفراساً حسانا

وقد كان العربي بحاجة مستمرة إلى سلاحه وجواده وقد روى عن حاتم الطائي الجواد العلم أنه كان يجود بكل ما يملك إن سئل إلا أنه يشق عليه جدا أن يجود بجواده أو حسامه ، وهو على حق في ذلك لجوده بآلة الحرب في مجتمع دموي يسلمه إلى الذل والهوان ، قال الشاعر :—

فما مقمت دار ولا عز أهلها من الناس إلا بالقنا والقنابل(١)

واسعة الصحراء وتنقل العرب فيها عز عليهم أن يذعنوا لجبار متحكم ، لماذا يقبلون الضيم وأرض الله واسعة ، ومطية السفر حاضرة وقد أوصى بعضهم بعضاً بمغادرة دار الهوان .

قال عنترة العبسي يطري دار العز ولو كانت سعيراً متقداً :—

لا تسقني كأس الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
كأس الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

وقال غيره :—

إذا جانب أعياك فاعمد لجانب وبابك لاق في بلاد معولا

فالعربي في صحرائه جواب آفاق لا يضيره بل يسره أن ينتقل من أرض إلى أخرى إذ لا تربطه بها أملاك أو مصالح لا تنقل. ولكثرة ترحال العرب كثر أدب الحنين إلى الديار ووصف الدمن والأطلال والفراق كثرة بينة .

ونتج عن كثرة الحروب تعدد الزوجات ليكثر النسل (فالعزة للكاثر) ومن كان أكثر عدداً فقد نأى عنه الضيم ، وفرضت مهابته على خصومه .

إبى لهم أن يعرفوا الضيم أنهم بنونا نق كانت كثيراً عيالها

وأصبح تعداد البنات عبئا على الرجل ونقطة ضعف ينبغي أن يذود عنها .

ونسوتكم في الروع باد وجوهها
يحسن إماء والإماء حرائر

فهم يكثرون من النساء لزيادة النسل ولا يتمنون لهن أن يكثرن من البنات ، ولو كانت فتاة الصحراء كفتاة اليوم في حذق فن القتال لكان للعربي إلى المرأة نظرة أخرى . وقد ورد في تاريخ العرب ذكر نساء مقاتلات ولاسيما من الخوارج ولكنهن من القلة بحيث لا تستقيم بهن قاعدة . وقد تطور فن القتال وأصبح اليوم — بصالح المرأة ، فقد كانت قديماً آلة الحرب تحتاج إلى عضل شديد ، أما اليوم فقد أصبحت أهميته ضئيلة بجانب المهارة وقوة الأعصاب .

ولقد تمكن حب الحرب من نفس العربي ، وساد نظام (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) وأصبحت الحرب عندهم من الأماني الثلاث العزيزة التي لولاها لا يحفل الإنسان بحياته .

قال طرفة بن العبد :—

ولولا ثلاث هن من لذة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكري إذا نادى المضاف مجنباً كسيد الغضا نبهته المتورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
بيهكنة تحت الطراف الممدد

(١) جماعات الخيل

وقال غيره : —

وكان أحى جوان ذا حفاظ وكان القتل للفتيان زينا

وقال غيره : —

وإنى فى الحرب الضروس موكل بإقدام نفس لا أريد بقاءها

ومن الصواب أن شعر الانتقام والوعيد يذكى جذوة النفس ، ويحفز إلى الأخذ بالثأر ويرهب الخصم العنيد ، ولعل من أسباب انصراف العرب عن الملاحم الطويلة أنهم بحاجة إلى نوع من الشعر سهل الترديد ، قصير مستقل بذاته ، سهل حفظه ، يردد قبيل الحرب أو بين الجموع المتشابكة — وقد جاشت الأرواح — ليقوى النفس على الثبات ويبعثها الإقدام والحرص على مواقف البطولة — وجل ماورد فى ديوان الحماسة من شعر الحرب قصير موجز مع احتمال أن أبا تمام قصر منه بانتخابه العزيز التوفيق .

ومن شعر الحماسة نرى أن قسما من العرب يرى أن من سمات الشجاعة والسطوة أن يكون الإنسان سريع الاستجابة لدواعى الشر ، متحكما بها ، إمعة مع كل شرير ، لأن ذلك من مظاهر القوة والبسالة .

قال الشاعر : —

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهمو لأية حرب أم بأى مكان

وقال غيره : —

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا

وقال غيره : —

وأحيانا على بكر أخينا إذا مالم نجد إلا أخانا

وقال غيره : —

وإنى لا أزال أخا حروب إذا لم أجن كنت مجن جانى

غفر الله (لسواء بن المضرب) وكان فى عون من عاصره وعايشه هذه غاية حب الخصام والفتن أن يكون حريصا على أن يستمر حبل الشر فإذا لم يجن هى الجناة وصار لهم وقاء استدامة لشرهم وظلمهم ، وإذا أسعده الحظ لجنى على الناس فتلك الأمنية .

ومن العيب على أفراد العشيرة : (ألا يظلموا الناس حبة خردل) أو أن يطلبوا من المستصرخ دليلا على دعواه ومظلمته قبل أن يبدأوا المعركة .

والمستقرئ لشعر الحماسة فى أدب العرب يجد منه ما يمثل عاطفتين متضادتين : عاطفة الرأفة بالأقارب ورعايتهم ، وعاطفة القسوة عليهم ، والمثل لكلتا العاطفتين عديدة .

قال أوس بن حجناء فى مقاومة الشر وإن جاء من ذوى القربى

إذا المرء أولاك الهوان فأوله هوانا وإن كانت قريبا أواصره

وقال غيره : —

ونحن بنو عم على ذات بيننا زرابى فينا بغضة وتنافس

ونحن كصدع العس (١) أن يمط شاعبا (٢) يدعه وفيه عيبه متشاخس (٣)

وعارضه آخر فى رعاية حقوق القربى . وإكرام صلة النسب : —

وإنى لأنسى عند كل حفيظة إذا قيل مولاك (٤) احتمال الضغائن

وإن كان مولى ليس فيما يهمنى من الأمر بالكافى ولا بالمعاون

وقال غيره : —

لعمرى لرهط المرء خير بقية عليه وإن مالوا به كل مركب

من الجانب الأقصى وإن كان ذا غنى جزيل ولم يخبرك مثل مجرب

وقال محمد بن عبد الأزدى :

ولا أدفع ابن العم يمشى على شفا وإن بلغتنى من أذاه الجنادع (٥)

ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه لترجمه يوما إلى الرواجع

وأحسب أن قصيدة (معن بن أوس) فى مداراة القريب لا تنزاع الضغينة من صدره باللطف والتسامح وسعة الصدر هى أم الباب فى هذا الصدد : —

---

١ — العس القدح الكبير . ٢ — الشاعب من يصلح الصدع .
٣ — متشاخس أى متفاوت . ٤ — من معانى المولى ابن العم .
٥ ... الدواهى .

وذى رحم قلت أظفار ضغنه يحلمى عنه وهو ليس له حلم

وفيها يفصل أسلوبه الناجع فى رأب الصدع وإصلاح الخلاف وتأليف الأفئدة. وقد أعجب بها عبد الملك بن مروان وكان ذا نزعة أدبية وفضلها على كل ما سمع من شعر أمرئ القيس والأعشى والنابغة. وإذا أخذنا بنظرية (أدلر) فى شدة التنافس بين الأقارب فإن ما ذكر من أشعار البغض بين الأقرباء شىء طبعى شائع كما أن استعمال الحسنى فى معاملتهم سمو من تغليب العقل على العاطفة لا يرقى اليه إلا الفلائل.

ومن سمات الضعف والاستخذاء قبول الدية فلا تقبل الديات إلا عند خوف معاقبة، وقبولها عندهم سمة الضعف والطمع.

قال مرة بن عداء من بنى أسد :—

فلا تأخذوا عقلا من القوم إننى
أرى العار يبقى والعاقل[2] تذهب

وقال غيره :—

ولكن أبى قوم أصيب أخوهم
رضا العار فاختاروا على اللبن الدما

وقالت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب على لسان أخيها القتيل :—

أرسل عبد الله إذحان يومه
إلى قومه لا تعقلوا لهم دمى
ولا تأخذوا منهم أفالا[3] وأبكراً
وأترك فى بيت بصعدة[4] مظلم

والمستحسن أن يضيف الموتور إلى رفض أخذ الدية زيادة فى التنكيل والقتل يتجاوز بها حد المساواة.

قال أحدهم :—

يا شمل شمر واطلب القوم بالذى أصبت ولا تقبل فصاصاً ولا عقلا

وعما يدل على جودة الطبع، والثقة بالنفس وحب الصدق أن يعترف العربى لخصمه بالصفات الشريفة فيطرى شجاعته ويصف البطولة فى حملاته، وأشعارهذا الضرب تسمى عندهم (بالمنصفات) يكرمون شاعرها ويعجبون به فوق ما يصنعون لغيره من الشعراء قال عبد الشارق بن عبد العزى الجهنى :—

شددنا شدة فقتلت منهم ثلاثة فتيـة وقتلت قينا
وشدوا شدة أخرى فجروا بأرجل مثلهم ورموا جوينا
فآبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالسيوف قد انحنينا

وقال زفر بن الحرث :—

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ليالى لاقينا جذام وحميرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
ولما لقينا عصبة تغلبية يقودون جرداً للمنية ضمرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

لقد ذكر عن خصومه طواعية أنهم (كانوا على الموت أصبرا) وهذا لسان صدق ولفظ بديع يعتز بها وبأمثالها تاريخ الأدب

وقال المديل بن الفرخ العجلى وهو شاعر إسلامى :—

إذا ما حملنا حملة مثلوا لنا
بمرهفة تذرى السواعد من صمد
وإن نحن نازلناهم بصوارم
ردوا[1] فى سرابيل الحديد[2] كما نردى
كفى حزناً أن لا أزال من القنا
بمج نجيعاً من ذراعى ومن زندى

ومن أشنع العيوب عند العرب أن يعيش الفرد للذته وعاره فتشغله اللذة عن واجب الإباء والكرامة، وصورة مصعب بن الزبير ماثلة للأذهان إذ يترك من بعده زوجه سكينة بنت الحسين فتاة الحسب والأدب والجمال تندب ثكلها وهو يلومها على جزعها بقوله (ما ترك أبوك لابن حرة من عذر). وقد كانت لمصعب القدرة على النجاة.

---

١ — من المصادر التى تذكرها أمالى القالى ج٢ صفحة ١٠١ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦. ٢ — العاقل: الديات. ٣ — مفردها أفيل مادون السنة من الإبل. ٤ — موضع باليمن

١ — ردوا: هرولوا. ٢ — سرابيل الحديد: الدروع.

قال شبرمة بن الطفيل من شعراء العصر العباسي الأول — لعمري لئم عند باب ابن محرز

أغن عليه البارقان (١) مشوف (٢)

أحب إليكم من بيوت عمادها

سيوف وأرماح لهن حفيف

فهو يعرض بهم لسكونهم إلى الخفض وانزوائهم عن لقاء الحروب وأبو نواس — وهو ربيب حياة اللذة — لا يعجبه قول شبرمة بل يقف منه على حافة الطرف الثاني قال : —

وضيت من الدنيا بكأس وشادن

تحير في تفصيله قطن الفكر

إذا ما بدت أزرار جيب قميصه

تطلع منه صورة القمر البدر

فأحسن من ركض إلى حومة الوغى

وأحسن عندي من خروج إلى النحر

فلا خير في قوم تدور عليهم

كؤوس المنايا بالمثقفة السمر

تحياتهم في كل يوم وليلة

ظبي المشرفيات المزيرة للقبر

وهو بالإضافة إلى ما في حياته من عوامل الاستخذاء عاش في بيئة ترفل بنعمة الأمان ، يسهر الحاكمون فيها على حماية دماء الناس وأموالهم ، ولم يكلفه مجتمعه واجباً دفاعياً فظن نفسه مستغنياً عن الذياد. ولو عاش في بيئة يحتكم ساكنوها إلى القوة والسيف قبل المنطق لتبين خطل رأيه وراح ضحية فلسفته .

وقد زودت حرب الجاهلية وحرب الجمل وصفين وحروب الخوارج تاريخ الأدب العربي بأروع أدب الحرب ، ولكنه نزر في العصر العباسي بالتدريج لتغير نظام المجتمع العربي . ولعل من أبرز شعر الحماسة في هذا العصر بائية أبي تمام في فتح عمورية وسينيات أبي الطيب في الحماسة والمديح . وفي عصر الفترة المظلمة قصيدة صفي الدين الطائي الحلي (٦٧٧ — ٧٥٠ هـ) وأولها : —

على الرماح الموالي عن معالينا

واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

أما شعر الحماسة في الأدب الحديث فبحاجة إلى بحث مستقل وقد اكتسب معاني جديدة لتطور أساليب القتال ومعداته .

لقد كانت شوكة العرب وسطوتهم طاقة جبارة وجه بها الإسلام إلى خارج الجزيرة واستغلها لنشر الدين فاكتسح بها الأقطار .

وبعد فهذا شواظ من أدب الحماسة عند أجدادنا الآباة أعيده على الأسماع لعله يقدح زند الحمية في النفوس ويلهب ما ورثت من حب التضحية لتوهب لها الحياة العزيزة ، والدفاع المشروع تقوه كل النظم الدينية والمدنية .

الحلة « العراق »

أحمد عبد الرحيم

ليسانس بالأدب العربي

١ — البارقان : سواران . ٢ — مشوف : مجلو

إدارة البلديات العامة

تقبل المطاءات بإدارة البلديات العامة (بوستة قصر القوبارة) لغاية ظهر يوم ٣١ - ١٢ — ١٩٥٠ عن عملية ترميم الخزان العالي بادكو .

وتطلب الشروط والمواصفات من الادارة على ورقة عثمانية فئة الثلاثين مليما مقابل دفع مبلغ ٢٥٠ مليم خلاف أجرة البريد وكل عطاء غير مصحوب بتأمين ابتدائي قدره ٢ ٪ لا يلتفت إليه

٦٨٣٤